كتاب الحسبة

لجمال الدين يوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرّد الدمشقي
في تعداد صنّاع دمشق وباعتها في القرن العاشر للهجرة

تقدّم ذكر مجموعه الخطي الذي نقلنا عنه كتاب الطباخة (ص ٣٧). ومن مخاميته ايضاً « كتاب الحسبة » في سبع ورقات. سرد فيه جزافاً دون تنسيق حِرَف دمشق وكل ما يُتعيَّش به من الاسباب والبِلَع في ايامه. واقتصر على اصول الصناعات منها والتجارات، بغير تفصيل لما يدخل تحتها وتنطوي عليه من الفروع. وليس فيه اقلّ اشارة او تفسير لما كان يجري فيها من ضروب الحِيَل والغشّ والتدليس. وهي التي كان من جملة فروض التحتسب البحث عنها وإزالتها وقد سبق الى وهم المؤلف أن في ذكر كل صنعة وكيفية غشها اذى في التطويل، كما يجيء من لفظه. ولذلك امسك عن الزيادة، واكتفى بتكرار الوصية دائماً بالتقوى، وعدم الغش، وحسن العمل، في الحسبة على كل المعايش بالاجمال. شأن الفقيه لا المؤرخ. ولهذا السبب خلا كتابه من كل فائدة، فيما عدا فائدة تعداد طوائف الصناع والتجار في حاضرة الامويين، منذ اربعة قرون ونصف قرن. وقد فاتنا خصوصاً معرفة انواع الاسلحة، والانسجة، وطرائف الثياب، التي اشتهرت بها دمشق. ولا تزال بعض طرائق صناعتها منسوبة اليها في اللغات الغربية. وجملة ما كان باقياً من اصناف الحياكة في اواخر دولة المماليك نيّف ومئة صنف لم يشأ المؤلف ان يعدّ منها بالتفصيل الا عشرة من القطن فقط. ومع اعتقادنا انه عرف اشياء وفاتته اخرى من صناعات بلده، لم نتمالك، بعد مطالعة كتابه، من التحسّر لما صارت اليه الفيحاء من الاتضاع والانحطاط. بعد ان استباحها تيمورلنك نهباً وتدميراً. ونقل معه الى سمرقند مَهَرة صنّاعها واسرار حذقهم في كل فن. وقبل ان ننقل متن كتاب الحسبة. رأينا ان نقدم عليه كالتوطئة مقالةً في معناه في المجموع نفسه دعاها « كتاب الصنائع » ذكر فيه ارآء الفقهاء في افضل الصنائع في الاسلام. لا تخلو تلاوته من بعض الفائدة

والاغراب . قال بلفظه وعاميته احياناً » كما خطّ بقلمه :

« اعلم ان الصنائع كثيرة . وقد اختلف العلماء في افضلها . فقيل افضلها الحراثة والزراعة . لان الانسان يتوكل على الله ضرورة في ذلك . وبها قوام الناس والمعايش . وحاجة الناس اليها داعية الصغير والكبير حتى الدواب والبهائم والطير والذر وغير ذلك . وآكلها الارض والبقر وآلة الحرث . وقيل افضلها المطر . فان عمر رضي الله عنه قال : « لو اتجرت لم اتجر الا في المطر . ان فاتني ربحه . لم يفتني ربحه . » وقيل الافضل التجارة مطلقاً . والتجارة تارة تكون في البلد وآلتها المال فقط . وتارة تكون في غير البلد وتحتاج الى المال والدواب . وقيل افضل التجارة في اللبن . ورد في حديث « لو اتجر اهل الجنة — ولا يتجرون — ما اتجروا الا في اللبن » . وذلك لان الذي يتجر في اللبن لا يزال يحب المصب للمسلمين .

ومما تكره التجارة فيه الاقوات من القمح والشعير وغير ذلك . وورد في حديث « من احتكر لم يمت حتى يضربه الله بالجذام » . ولان المتجر في ذلك يحب الغلا . والتجارة في الحرير والذهب والفضة وما فيه ضرر على المسلمين . وغرم التجارة في محرّم كالخمر والخنزير والسلاح للاعداء .

واما الطباخة فهي صنعة تحتوي على حسن وقبيح . واما الحياكة فكذلك تحتوي على حسن وهو عموم النفع . واما القبيح فلما فيها من الدناءة والوضع . وقد قيل انها من فروض الكفايات . واما التجارة فهي صنعة حسنة حتى قيل ان زكريا كان نجاراً وقد صنعها نوح . واما الخياطة فهي صنعة حسنة وقد دخت لها مريم . واما السياسة والقاعية (١ فهي حرفة تحتوي على حسن وقبيح . وكذلك بيع الفاكهة والفطريات وغير ذلك .

والخمس الصنائع الخسيسة . والكيالون . وهم الجالون . والحالون . والصيارفة . والبزادرة . والحمالون . والمشاؤون . والدباغون . والرملية (٢ . والمشعوذون . وكره احمد رحمه الله كسب الحجامة . وكسب الناشطة . ويحرم اجر النائحة والمغنية .

ومن الصنائع ما هو مندوب . وهو الحياكة . والعطارة . والقراءة . والتجارة . والزراعة . والخياطة . ومنها ما هو قبيح . حركة . وصاحبه مخوس في الغالب . كالحريرية . والقباقبية . والذهبية . والبارودية . والحجامين . والخطابين . والسقايين . فتأمل ذلك لما فيها من المعاصي والمفاسد الخفية . والله اعلم .

كتاب الحسبة

يحتاج المحتسب الى معرفة الاحكام من الصلاة . والصوم . والزكاة . والبيع . والشراء . والنكاح . والصدقة . واجتناب من الاطعمة والمحرم . والمباح من الاشربة والمحرم . وما يكفر به الانسان وما لا يكفر . والذبائح وشروطها . والشهادات والاقرار . وجميع هذه

(١ القاعي بائع الفحم وهو الحنطة والخمص والخبز وسائر الحبوب التي تخبز .

(٢ البزادرة جمع بزدار حامل البازيار وبائعه من ضيور الصيد . والمشعوذون في اصطلاح العامة من يغش الجلود اي يفتشها . والرملية هم الذين يدّعون علم الغيب بالخط على الرمل .

الاحكام ليأخذ الناس بها . ويحتاج الى معرفة الصنائع وجيدها من رديها وغشها . وخالصها من منشوشها

ثم اعلم ان ارباب الصنائع انواع كثيرة :

الاول الحاكة . وهم مائة صنف

الاول حاكة القطن . وهم عشرة اصناف :

الاول حاكة البطاين . وغشهم بقلة الصناقة . وشد ذلك بالمجين

الثاني حاكة القطن الرفيع

الثالث حاكة العلم

الرابع حاكة الأزر

الخامس حاكة الفوط والشدود (١

السادس حاكة المناشف

السابع حاكة اللحف

الثامن حاكة التفاصيل الغربانية (٢

التاسع حاكة الثياب الكركية

العاشر حاكة المختر من القطن . وهؤلاء الحسبة عليهم في الجودة .

الثاني حاكة الكتان وهم اكثر من عشرين صنف :

الثالث حاكة الحرير وهم اكثر من اربعين صنف . وهؤلاء الحسبة عليهم في الجودة وعدم الغش وعدم المطرة بالصبيان وغلق الابواب عليهم ونحو

الرابع حاكة الصوف وهم اكثر من عشرين صنف . والحسبة عليهم في الجودة

الخامس حاكة البسط وهم اكثر من عشرة اصناف .

السادس حاكة الخيش والمدول وهم اكثر من خمسة اصناف .

الثاني التجار . وهم عدة اصناف . من بيع الثياب التي لم تتعمل من كل ما تقدم . والحسبة عليهم في التقوى في المعاملة . والتقوى في البيع والشرى . ومن بيع الخلقان المخيطة والمستعملة . والحسبة عليهم كذلك

الثالث الجوهرية . وهو اصناف . والحسبة عليهم في التقوى وعدم الغش . وادخال شيء في شيء .

---

١) الفوطة ثوب يلبسه بعض اهل المشرق ويأتزرون به في مكان السراويل ، كالإحرام والمئزر لاهل المغرب . والشدود جمع شد وهو نسيج من حرير يتخذ للعائم والمناطق .

٢) التفصيل قطعة من النسيج تُقدّر لثوب واحد ، بمعنى الصابة في اصطلاح الحاكة اليوم . قال ابو الفتح بن عبد السلام المالكي :

اهدى لنحوي من بخيل ثيابه ... فجللا فاغناني عن التفصيل

والغربانية نسبة الى غربا من قرى دمشق

الرابع	العطارون . وهم من يبيع العطر والابازير . والحسبة عليهم في التقوى وعدم الغش . وادخال شيء في شيء
الخامس	الطباخون . والحسبة عليهم في النظافة . وغسل الاواني وتغطيتها . وعدم الغش بالردي . والرفق في البيع
السادس	الفامية . والحسبة عليهم في النظافة . وتغطية الاواني . والتقوى في البيع والشرى
السابع	الفاكهانية . والحسبة عليهم في التقوى في البيع والشرى . وعدم ادخال الردي في الجيد
الثامن	الثقلية . والحسبة عليهم في تغطية الاوعية . وعدم خلط الردي بالجيد . والتقوى في البيع والشرى
التاسع	الدقاقون . وهم الطحانون والحسبة عليهم في الجودة وعدم الغش
العاشر	الخبازون . والحسبة عليهم في التقوى وعدم الغش
الحادي عشر	الحبوبية . وهم من يبيع الحبوب كلها . والحسبة عليهم في التقوى . وعدم الغش بالردي
الثاني عشر	التراسون . والحسبة عليهم في ترك الشبطة في الليل . والرفق بالدواب . وترك الكلام الفاحش
الثالث عشر	الجالون . والحسبة عليهم في الرفق بالدواب . والتقوى في انفسهم
الرابع عشر	الحالون . والحسبة عليهم في التقوى وعدم الخيانة
الخامس عشر	النجارون . والحسبة عليهم في التقوى . والنصح في الصناعة
السادس عشر	الحمارية . والحسبة عليهم في التقوى والنصح
السابع عشر	الحدادون . وهم اصناف كثيرة . والحسبة عليهم في التقوى والنصح
الثامن عشر	الابارون . والحسبة عليهم في التقوى وعدم الغش
التاسع عشر	الفواخرة . والحسبة عليهم في التقوى وعدم الغش
العشرون	الوراقون . والحسبة عليهم في التقوى وعدم الغش
الحادي والعشرون	البياطرة . والحسبة عليهم في التقوى وحسن الصنعة
الثاني والعشرون	السقطية . والحسبة عليهم في التقوى وحسن المعاملة
الثالث والعشرون	القُطّاعية . والحسبة عليهم في التقوى . وتغطية الاواني . والنظافة . وعدم الغش . وكثرة الماء
الرابع والعشرون	الشرابانية . والحسبة عليهم في النظافة . وتغطية الاواني . وعدم الغش والتنقيص
الخامس والعشرون	الاطباء . والحسبة عليهم في التقوى . والنصح . والمعرفة . والتواضع والتأني
السادس والعشرون	الجراحية . والحسبة عليهم في التقوى . والمعرفة . والنصح . وجودة الادوية
السابع والعشرون	المشابة . والحسبة عليهم في المعرفة . وعدم خلط شيء بشيء . والغش

الثامن والعشرون	الشاعون . والحسبة عليهم في التقوى . وعدم الغش
التاسع والعشرون	بياعة الخرز والخيطان . والحسبة عليهم في المعاملة وعدم الغش بالردي
الثلاثون	الحلوانية . والحسبة عليهم في النظافة . وجودة الطبخ . وتغطية الاواني . وعدم الغش
الحادي والثلاثون	بياعة الصابون وعماله . والحسبة عليهم في التقوى وعدم الغش وخلط الجيد بالردي
الثاني والثلاثون	السماسرة . والحسبة عليهم في الصدق . والامانة . وعدم الشيطنة
الثالث والثلاثون	الخضرية . والحسبة عليهم في النظافة . وحسن المعاملة
الرابع والثلاثون	اللحامون . والحسبة عليهم في النظافة . وحسن المعاملة
الخامس والثلاثون	الشرايحية . والحسبة عليهم في النظافة . والاصلاح . وعدم السرقة
السادس والثلاثون	القزازون . والحسبة عليهم في الجودة . وعدم الغش
السابع والثلاثون	القباقية . والحسبة عليهم في الجودة . والاصلاح . وعدم الغش
الثامن والثلاثون	الدهانون واصحاب المدعون كله . والحسبة عليهم في الجودة . وعدم الغش . والاصلاح
التاسع والثلاثون	بياعة اللبن والجبن ونحو ذلك وعماله . والحسبة عليهم في الجودة . وعدم الغش . والنظافة . والتغطية
الاربعون	ضرّابة اللبن . والحسبة عليهم في الجودة . وحسن العمل
الحادي والاربعون	بياعة الطيور . والحسبة عليهم في التقوى . والصدق
الثاني والاربعون	الشهود . والحسبة عليهم في الرفق . وقلة الطمع . والديانة
الثالث والاربعون	المؤذنون . والحسبة عليهم في معرفة الاوقات . والامانة . والمباشرة
الرابع والاربعون	النحاسون . والحسبة عليهم في التقوى . وحسن الصنعة وعدم الغش
الخامس والاربعون	المناخلية . والحسبة عليهم في الجودة . وعدم وضع الخشن
السادس والاربعون	المرايلية . والحسبة عليهم في الجودة
السابع والاربعون	اصحاب الخانات . والحسبة عليهم في الامانة . واجتناب المناكر والمحرمات
الثامن والاربعون	حمّامية . والحسبة عليهم في الامانة . والنظافة . والسخونة . والرفق بالناس
التاسع والاربعون	الزبالون . والحسبة عليهم في عدم مضايقة الناس . والتنذير عليهم
الخمسون	السكرية . والحسبة عليهم في المعاملة . وعدم الغش
الحادي والخمسون	بياعة البلاص وعماله . والحسبة عليهم في الجودة . والاتقان . وعدم الغش
الثاني والخمسون	الذهبية . والحسبة عليهم في التقوى . وعدم الغش . وعدم الخلوة بالصبيان
الثالث والخمسون	الخياطون . والحسبة عليهم في الاتقان . وحسن العمل
الرابع والخمسون	الطراقية . والحسبة عليهم في الجودة . وحسن العمل
الخامس والخمسون	الزراعية . والحسبة عليهم في الاتقان . وحسن العمل

السادس والخمسون الرامجية (١ . والحسبة عليهم في الاتقان . وحسن العمل
السابع والخمسون الأخفافية . والحسبة عليهم في الجودة . وحسن العمل
الثامن والخمسون الحياكون . والحسبة عليهم في الجودة . وحسن العمل
التاسع والخمسون الدقاقون (٢ . والحسبة عليهم في المعرفة . والجودة . وعدم التقطيع
الستون الكتبة . والحسبة عليهم في الجودة . وعدم التغبيش
الحادي والستون بياعة النزل . والحسبة عليهم في التقوى . وعدم الغش
الثاني والستون الأقباعية . والحسبة عليهم في التقوى . وعدم الغش
الثالث والستون الدباغون . والحسبة عليهم في الجودة والاتقان
الرابع والستون الحراس . والحسبة عليهم في الحفظ والامانة
الخامس والستون العنبرية . والحسبة عليهم في النصح وحسن العمل وعدم الغش
السادس والستون السيورية . والحسبة عليهم في حسن العمل وعدم الغش
السابع والستون المصلحية . والحسبة عليهم في النظافة وحسن العمل
الثامن والستون اصحاب الكوامخ والمخللات . والحسبة عليهم في حسن العمل والنظافة
التاسع والستون القُرَبِيّة . والحسبة عليهم في الاتقان وحسن العمل وعدم الغش
السبعون الخردفونية (٣ . والحسبة عليهم في الاتقان وحسن العمل
الحادي والسبعون الروجية . والحسبة عليهم في الاتقان وحسن العمل
الثاني والسبعون الامشاطية . والحسبة عليهم في الاتقان وحسن العمل
الثالث والسبعون الجرخية . والحسبة عليهم في التقوى في البيع والشرى . وعدم التخبير بما اشتُري الى اجل وترك الملتف
الرابع والسبعون العلبية . والحسبة عليهم في عدم الغش
الخامس والسبعون الرحولية . والحسبة عليهم في الاتقان وعدم الغش
السادس والسبعون بياعة الحبال وعمالها . والحسبة عليهم في الجودة وعدم الغش
السابع والسبعون الحصائية . والحسبة عليهم في جودة العمل والنظافة
الثامن والسبعون عمال التبوسك وغيره . والحسبة عليهم في العمل والنظافة وعدم الغش
التاسع والسبعون الرملية . والحسبة عليهم ان يتنعوا بالكلية . او يكونوا على حال متصلحة للناس
الثمانون المشوذة . والحسبة عليهم ان يتنعوا او يكونوا على حال متصلحة
الحادي والثمانون مجلدة الكتب . والحسبة عليهم في الجودة والاتقان وعدم الفتجة (٤

١) الرامجية صناع السروجة ، وهي المعروفة عند العامة اليوم بالصرماية

٢) الدقاقون هنا هم الذين يدقون الانسجة والاثواب بالمطارق لصقلها . وكانت بعض هذه الصنعة تسمى قديماً بالقصارة واصحابها بالقصّارين . ولكنهم كانوا يدقون الثياب ويحورونها اي يغسلونها ويبيضونها

٣) لم نستطع ان نجد تفسير هذه اللفظة واية صناعة كانت

٤) يريد ، لا شك ، بالفتجة حشو التجليد بالفتائح والاوراق

الثاني والثمانون الصفالون . والحسبة عليهم في حسن الصنعة والاتقان
الثالث والثمانون النخاسون وباعة الرقيق . والحسبة عليهم في الصدق والامانة وعدم التدليس والوطء قبل الاستبراء
الرابع والثمانون المؤدّبون . والحسبة عليهم في حسن التعليم وان يكونوا من الرجال المزوّجين
الخامس والثمانون المبيّضون . والحسبة عليهم في الاتقان
السادس والثمانون الحكاكون والبخاشون . والحسبة عليهم في الاتقان وحسن العمل
السابع والثمانون البارودية . والحسبة عليهم في حسن العمل
الثامن والثمانون الكاكيّة . والحسبة عليهم في الاتقان وحسن الصنعة
التاسع والثمانون السنّانون . والحسبة عليهم في الاتقان وحسن الصنعة
التسعون الصيّاغ . والحسبة عليهم في الامانة والاتقان وحسن الصنعة
الحادي والتسعون الحصرية وعمال القفاف والمكانس . والحسبة عليهم في الاتقان والجودة
الثاني والتسعون الصيادون . وهم اصناف كثيرة . والحسبة عليهم في التقوى وتحاشي اسباب الحل من الذبح ونحو ذلك
الثالث والتسعون الصيارفة . والحسبة عليهم في المعرفة والامانة وتحاشي اسباب الحل
الرابع والتسعون الدهنيّة . والحسبة عليهم في حسن العمل وعدم الغش
الخامس والتسعون المراشط . والحسبة عليهن في العمل وعدم تحاشي المحرم
السادس والتسعون الكحالون . والحسبة عليهم في المعرفة والصدق وجودة الادوية
السابع والتسعون القطانون . والحسبة عليهم في الجودة والصنعة
الثامن والتسعون باعة الكتان . والحسبة عليهم في الصنعة والجودة
التاسع والتسعون الكوافيّون . والحسبة عليهم في الصنعة والجودة
المائة القطنيون . والحسبة عليهم في الجودة وحسن الصناعة
الحادي والمائة الحجارون والترابون . والحسبة عليهم في الجودة والامانة وعدم تحميل الدواب ما لا تطيق
الثاني والمائة الخطابون . والحسبة عليهم في الرفق بالدواب

وعلى الجميع الحسبة في الديانة والتقوى وتحرير الميزان والصنج

ولولا اذى التطويل زدنا على هذا وذكرنا كل صنعة وكيفية غشها